البر العصري

كما تمثله حياة كارنجى

بقلم صاحب السعادة توفيق دوس باشا

فى سنة ١٩٠١ كان يعيش فى الولايات المتحدة الأمريكية رجل من أعظم الأثرياء فى العالم هو اندرو كارنجى Andrew Carnegie . وكان رغم بلوغه السادسة والستين من عمره يدير مصانع للفولاذ ليس لها نظير فى العالم سواء من حيث الضخامة ووفرة الإنتاج أو من حيث الأساليب العصرية التى تأخذ بها فى الصناعة . وفى ذلك العام الذى أشرنا إليه وقف كارنجى كمن يقف فى طريق الرحلة المديدة يقيس ما قطع منها وما بقى عليه أن يقطع ؛ فرأى أنه جمع من المال ما يزيد على مئة مليون جنيه وأن عمره الماضى قد انقضى فى جمع المال فعقد العزم على أن يمضى بقية عمره فى إنفاق هذا المال الضخم لا برا بالفقراء والمحتاجين فقط ، بل أيضا لخدمة المجتمع والتسامى بفضائله وتحقيق مثلياته .

والولايات المتحدة هى وطن الثروات الضخمة ولكنها أيضا بلاد البر العظيم . وليس هذا البر مقصورا على أبنائها ومدنها ، فإن ما يخرج منها كل عام الى الأقطار الأجنبية يبلغ اثنى عشر مليونا من الجنيهات . وهذا المبلغ هو المتوسط فى السنين العادية ، أما حين يجتاح الوباء أو القحط أو السيل أحد الأقاليم فى الصين أو الهند مثلا أو حين تحتاج أوروبا إلى ما ينقذ أطفالها من الجوع الذى تجلبه عليها الحروب ، فان هذا المبلغ يزداد ويتضاعف . ونحن فى مصر نعرف مؤسسة روكفيلر التى تنفق على الصحة العامة فى الريف ، كما نعرف الجامعة الأمريكية التى أنشأها مع ملحقاتها أثرياء أمريكيون ولا يزالون ينفقون عليها .

وقد كان كارنجى يقول "يجب ألا يموت الإنسان ثريا" . ومع أن المشهور المألوف أن العصاميين الذين كدوا وتعبوا فى جمع المال لا تسمح أيديهم بالانفاق ولا يعرفون بالاسراف ، فان كارنجى الذى بدأ حياته خادما فى مكتب قد أنفق على البر ٩٨ فى المائة من ثروته ولم يترك لاهله غير اثنين فى المائة منها .

ولد اندرو كارنجى سنة ١٨٣٥ فى إحدى القرى فى اسكوتلانده . فلما بلغ الثالثة عشرة هاجر إلى الولايات المتحدة وهناك تقلب فى صناعات وضيعة ، فكان خادما فى أحد المكاتب التجارية ، ثم عاملا فى مصنع للقطن ، ثم انتهى به المطاف إلى وظيفة عامل فى التلغراف بمدينة بتسبرج . فلما نشبت الحرب لأهلية من أجل تحرير الزنوج انتظم فى الجيش . ولما انتصر دعاة الحرية وتحرر الزنوج وألغى الرق عاد إلى بتسبرج وأسس "ورشة" صغيرة للآلات .

وما زال مكبا على عمله يثابر عليه ويتوسع فيه حتى صارت هذه "الورشة" مصنعا للفولاذ. وكان كارنجى متطلعا يقظا وقد سمع عن طريقة جديدة لصنع الفولاذ بتكاليف قليلة تمكن المصنع من بيعه بأثمان رخيصة، وهى طريقة بسمر، فاستعملها فى مصانعه بعد تجارب متكررة كان يلقى فيها الخيبة التى تثبط عزيمة غيره ممن لم يتازوا بروح المثابرة والجلد. ولكنه نجح فى النهاية واستطاع أن يزن العالم فولاذ رخيص وكانت طريقة بسمر بمثابة الانقلاب العظيم فى صناعة الفولاذ.

ومن ذلك الوقت أخذ المال يتدفق على كارنجى وأخذ هو فى التوسع. فكان يشترى تبر الحديد فى أمريكا وغيرها من الأقطار ويؤسس المصانع لكى يفى بالطلبات المتكاثرة.

فلما بلغ السادسة والستين باع نصيبه بمئة مليون جنيه وخرج من صناعة الفولاذ لكى يتوفر على البر، بل شرع عندئذ يحترف البر كما كان قبل ذلك يحترف صناعة الفولاذ. أى أنه جعل يجد ويكد لكى لا يضيع منه قرش فى غير موضعه من البر المثمر سدا لحاجة إنسانية عليا. ومما يدل على عنايته بل تعبه فى هذه الحرفة الجديدة قوله "إن إنفاق المال أشق من جمعه". وهو بالطبع هنا يعنى الإنفاق السديد فإن من يملك مئة مليون جنيه ويعقد العزم على إنفاقها لخدمة الإنسانية يجب أن يتعب كثيرا فى تعرف وجوه هذا الإنفاق والاهتداء الى أيها يفضل وأيها يقدم أو يؤخر. والذين عرفوا كارنجى يصرحون بأنه كان يتعب فى البحث والاختيار والتقدير عندما ينوى عقد هبة أو منحة أو وقف المال المغل على إحدى الجمعيات أو أحد الأعمال أكثر جدا مما كان يتعب فى إدارة مصانع الفولاذ.

وكان كارنجى يعنى كل العناية بألا يمنح المال هبة مطلقة، بل كان يشترط فى البر أن ينصب على الجديرين به الذين يعرفون كيف ينتفعون منه. فمن أمثلة ذلك أنه خص المكتبات بالملايين من ثروته، ولكنه كان يشترط على كل من أمريكا وبريطانيا "لا تنشئ مكتبة إلا إذا قدم السكان المنتفعون بها - سواء بأشخاصهم أو بمجالسهم المحلية - الأرض التى ستبنى عليها تلك المكتبة، وإلا اذا تعهدوا بإدارتها وصيانتها". وعندئذ كان يتقدم هو بنفقات لبناء وشراء الكتب. وبهذه الطريقة أنشأ الآلاف من المكتبات العامة المجانية، وفى الوقت نفسه علم الناس وسائل البر بالتعاون.

ولما كان كارنجى قد ولد فى إحدى القرى الاسكوتلاندية ثم هاجر إلى الولايات المتحدة كما قدمنا، فهو لم ينس وطنه الأصلى. فلقد وقف مقدارا من المال لمساعدة الطلبة الاسكوتلانديين الذين يعجزون عن سد حاجاتهم فى الجامعة. وهذا الوقف يعين العائلات الفقيرة فى اسكوتلانده على تعليم أولادهم حتى أن الإنسان ليجد أن كثيرا من الأطباء والمعلمين والمهندسين والمحامين فى تلك البلاد قد أنجبهم آباء يحترفون صيد السمك أو غير ذلك من الحرف المتواضعة.

ولكن وطنه القديم لم ينسه وطنه الجديد . فإنه أنشأ فى مدينة بتسبرج، التى كان عاملا فى مكتب تلغرافها ثم صاحب مصنع للفولاذ بها ، مدرسة للفنون الصناعية تعد من أفضل المدارس فى العالم وحبس عليها ما يكفى للتعليم وللبحث العلمى معا . وهذه المدرسة قد أنشئ كثير على طرازها فى الولايات المتحدة بعد ذلك .

ومن طريف ما ابتكره كارنجى فى البر أنه حبس مالا عظيما ينفق من غلته مكافآت مالية كبيرة لكل رجل أو امرأة ينقذ شخصا من خطر ما فى الحياة المدنية و يصاب بجرح فى هذا الإنقاذ . وقد سمى هذا المال " وقف الأبطال " .

وحبس مبلغا آخر يعادل فى العام ٢٥ ألف جنيه تنفق على ترقية المدن وتجميلها و رفع مستوى الحياه فيها .

واسم كارنجى يقرن فى العالم المتمدن إلى اسم السلام . فقد أنفق كثيرا من جهوده ومقدارا من ماله على الدعوة إلى السلام ، وهو الذى شيد من ماله قصر السلام فى هولندا حيث تقوم الآن محكمة المنازعات الدولية ، وألف كتبا فى هذا الموضوع وغيره من الموضوعات التى تمس الشؤون المدنية والاجتماعية . فمن مؤلفاته : " الديمقراطية الظافرة " و " تحسين الثروة " و " مشكلات اليوم " و " حياة جيمس وات " .

ومات كارنجى سنة ١٩١٩ وكان قد جمع ثروة جديدة ولكنها صغيرة بالنسبة إلى مجموع الثروة التى جمعها طيلة حياته ، وقد قدرت هذه الثروة الجديدة بخمسة ملايين من الجنيهات أرصدها كلها على أنواع البر وأعمال الخير .

* * *

هذه سيرة رجل وهب للعالم مائة وثلاثة ملايين من مائة وخمسة هى مجموع رأس ماله . وهذا بطبيعة الحال مثل أعلى لا أدعو إلى محاكاته فى مصر حتى ولو بنسبة الثروات الموجودة فى هذه البلاد . ولكنى أدعو أغنياءنا إلى الشعور بأن للوطن حقا فى أموالهم ، فلو أن كل واحد منهم يتبرع بعشر ثروته للخير لاختفى كثير من مظاهر البؤس والشقاء ، ولكانت حال مصر اليوم غير ما هى عليه ما

توفيق دوس